مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(رومية ٥: ١ – ١٠)

يا إخوةُ إذ قد بُرِّرنا بالإيمانِ فلنا سلامٌ مع اللهِ بربِّنا يسوعَ المسيح* الذي بهِ حصلَ أيضاً لنا الدخولُ بالإيمان إلى هذه النعمةِ التي نحن فيها مُقيمون ومفتَخرون في رجاءِ مجدِ الله* وليس هذا فقط بل أيضاً نفتخرُ بالشدائدِ عالمينَ أن الشدَّةَ تُنشِئُ الصبرَ* والصبرُ يُنشئُ الإمتحانَ والإمتحانُ الرجاءَ* والرجاءُ لا يُخزي. لأنَّ محبَّةَ اللهِ قد أُفيضت في قلوبنا بالروحِ القدسِ الذي أُعطيَ لنا* لأنَّ المسيحَ إذ كُنَّا بعدُ ضُعفاءَ مات في الأوانِ عن المنافقين* ولا يكادُ أحدٌ يموتُ عن بارٍّ. فلعلَّ أحداً يُقدِمُ على أن يموتَ عن صالحٍ* أمَّا اللهُ فيدلُّ على محبَّتِه لنا بأنَّهُ إذ كنَّا خطأةً بعدُ* ماتَ المسيحُ عنَّا. فبالأحرى كثيراً إذ قد بُرِّرنا بدمِهِ نخلُصُ بهِ من الغضب* لأنَّا إذا كنَّا قد صولِحنا معَ اللهِ بموتِ ابنِهِ ونحنُ أعداءٌ فبالأحرى كثيراً نخلُصُ بحياتِهِ ونحنُ مصالَحون.

القديس نيقولاوس كاباسيلاس

في العشرين من شهر حزيران تحتفل الكنيسة المقدسة بتذكار القديس نيقولاوس كاباسيلاس، وهو واحد من معلّمي الهدوئية الكبار. سنة ١٣٢٢ ولد هذا البار في تسالونيكيا لعائلة عريقة في النسب والإيمان، لا سيما لجهة أمه التي أخذ اسم عائلتها كاباسيلاس عوض اسم عائلة أبيه خاماياتوس. تلقى أوائل تربيته الروحية على يد أحد ألمع الآباء الروحيين في تلك الأيام، دوروثاوس فلاتوس تلميذ القديس غريغوريوس بالاماس أسقف تسالونيكيا (١٣٧١–١٣٧٩). منذ حداثته، وبتأثير ما تلقاه من تعاليم روحية، بات كاباسيلاس عشير الجماعات العلمانية التي كانت تلتئم لتعلّم وممارسة الصلاة القلبية، صلاة يسوع، بإمامة القديس إيسيذوروس بطريرك القسطنطينية العتيد.

درس قديسنا مبادئ الفلسفة والأدب والخطابة على خاله نيلُس كاباسيلاس، ثم انتقل إلى القسطنطينية ليلتحق بمدرستها الفلسفية. هناك استهوته كثيرًا أدبيات الفكر الكلاسيكي القديم، وأمسى ميالاً إلى فلسفة «الأنسنة» (Humanisme) التي كانت في أوج طلعتها في تلك الأيام، على بقائه أمينًا في الوجدان والممارسة لتعاليم الكنيسة. للإيضاح نشير إلى أن الفكر الفلسفي المذكور ينادي بالإنسان قيمة مطلقة بحد ذاته وبسموّه على أي «إطار خارجي»، اجتماعي أو سياسي أو حتى ديني.

أثناء إقامته في القسطنطينية برز الجدل العقائدي الشهير، بين القديس غريغوريوس بالاماس والراهب اللاتيني برلعام، حول إمكانية تألّه الإنسان بالنعمة الإلهية غير المخلوقة. لم يكن كاباسيلاس بعيدًا عن أجواء الجدالات الدائرة فتابعها باهتمام خاصة وأنها مسّت فيه بنيتيه الثقافيتين: الدينية والفلسفية. ولعل جذوة النعمة الإلهية اتّقدت في قلبه ففهم أن الإنسان خُلق ليصبح بالمسيح إلهًا، هذا التألّه الذي هو غاية الحياة المسيحية وعلّتها. بيد أن هذا المنعطف الروحي اللافت لم يثنه عن مضاعفة الاهتمام بمشاكل زمانه السياسية والاجتماعية، حتى صار من وجوه الشأن العام البارزين. سنة ١٣٤١، وإثر وفاة الإمبراطور

العدد ٢٤/٢٠٠٧
الأحد ١٧ حزيران
تذكار القديس والشهيد ايسَفرس
والقديسين الشهداء مانوئيل
وصابل واسمعيل
اللحن الثاني
إنجيل السَحَر الثالث

الإنجيل

(متى ٦: ٢٢ –٣٣)

قال الربُّ سراجُ الجسدِ العينُ. فإنْ كانت عينُك بسيطةً فجسدُك كلُّه يكونُ نيّراً* وإن كانت عينُك شرّيرة فجسدك كلُّه يكون مُظلماً. وإذا كان النورُ الذي فيك ظلاماً فالظلامُ كم يكون* لا يستطيع أحدٌ أن يعبُدَ ربَّين لأنّه إمَّا أن يُبغِضَ الواحدَ ويُحبَّ الآخرَ أو يلازمَ الواحدَ ويرذُلَ الآخر. لا تقدرون أن تعبُدوا اللهَ والمالَ* فلهذا أقولُ لكم لا تهتمُّوا لأنفسِكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادِكم بما تلبسون* أليستِ النفسُ أفضلَ من الطعامِ والجسدُ أفضل من اللباس* أنظروا إلى طيور السماءِ فإنَّها لا تزرعُ ولا تحصِدُ ولا تخزُنُ في الأهراءِ وأبوكم السماوي يقوتُها. أفلستم أنتم أفضلَ منها* ومَن منكم إذا اهتمَّ يقدِرُ أن يزيدَ على قامتهِ ذراعاً واحدة* ولماذا تهتمُّونَ باللباس. اعتبِروا زنابقَ الحقلِ كيف تنمو. إنَّها لا تتعبُ ولا تَغْزِلُ* وأنا أقولُ لكم إنَّ سليمانَ نفسَهُ في كلِّ مجدِهِ لم يلبَسْ كواحِدةٍ منها* فإذا كان عشبُ الحقلِ الذي يوجَدُ اليومَ وفي غدٍ يُطرَحُ في التنُّورِ يُلبِسُهُ اللهُ هكذا أفلا يُلبِسُكم بالأحرى أنتم يا قليلي الإيمان* فلا تهتمُّوا

أندرونيكوس الثالث، اشتعلت في الإمبراطورية حرب أهلية على خلفية تنازع العرش، كانت أدمى محطاتها في تسالونيكيا حيث كان قديسنا مقيمًا. بقي القديس نيقولاوس في المدينة حتى العام ١٣٤٧ يتأمل في أسباب الحرب الأهلية، وينشئ البحث الفكري تلو الآخر حول جذور وانعكاسات الظلم والاستبداد وانعدام العدالة الاجتماعية.

باعتلاء يوحنا السادس كانتاكوزانوس السدة الإمبراطورية هدأت النزاعات، واستدعى الإمبراطور الجديد إلى جانبه نصيره القديم نيقولاوس كاباسيلاس مستشارًا خاصًا لأدق شؤون الدولة وأبلغها حساسية. برغم انشغاله بالشأن العام. كتب أبحاثًا ومؤلفات عديدة في فلسفة المجتمعات وإنسانها. تحوّله التدريجي نحو الشأن الكنسي بدأ سنة ١٣٤٧ عندما التحق بالقديس غريغوريوس بالاماس المنتخب رئيسًا لأساقفة تسالونيكي. بعيد الانتخاب تنكّر شعب المدينة لراعيه الجديد فارتحل بالاماس إلى جبل آثوس، يرافقه كاباسيلاس، حيث انقطعا سنة كاملة إلى الصلاة والتأمل والهدوئية. تسالم المتعادون في تسالونيكيا وقُمع المفتنون، فعاد القديسان إلى المدينة وتسلم القديس غريغوريوس كرسيه. وسنة ١٣٥١ عُقد مجمع دان مناهضي الهدوئية وأعلن لاهوت التأله الذي ما انفك يدافع عنه بالاماس عقيدة رسمية في الكنيسة. خلال المجمع المذكور برز كاباسيلاس مناصرًا لفكر بالاماس وأعلن انفتاحه المبدئي على فكرة مجمع وحدة مع اللاتين، على أن لا تتخلله أية مساومات على عقائد الإيمان الأرثوذكسي.

بعد عودة الصدامات الدامية سنة ١٣٥٣ وتردد أصدائها في الكنيسة، اعتزل كاباسيلاس نهائيًا السياسة لينصرف إلى التأمل في سر المسيح المعاش في الكنيسة. تنقّل القديس بين العديد من الأديرة التي كانت في زمانه منارات روحية، قاصدًا التعمّق في مسلكه الهدوئي وطالبًا المزيد من التطهّر والاستنارة. في سنوات تألقه الروحي ملأ صيته أرجاء الإمبراطورية وبات مرشدًا بل وأبًا روحيًا للكثيرين من كبار القوم، على رأسهم الإمبراطور عمانوئيل. مع ذلك آثر الاختلاء بعيدًا عن صخب العالم، منكبًا على تأليف مصنّفيه اللاهوتيين: «شرح القداس الإلهي» و«الحياة في المسيح». في تسعينيات القرن الرابع عشر رقد قديسنا بسلام، دون أن تبقى لنا شهادات عن أواخر حياته. ثمة من قالوا إنه ارتحل عن هذه الدنيا راهبًا، أو إنه بقي علمانياً على ما يقول آخرون، وهذا أبلغ الظن. أما الشهادة الأصدق فتأتينا من تعاليمه، التي تحكي مسيرة إنسان ما وجد فرحًا إلا في ما يُفرح الله وما أحزنه إلا ما يُحزن الله، مرتقيًا بعيش النعمة إلى الاتحاد الكامل بالمسيح، غاية المسيحي في كل زمان ومكان.

في كتابه «الحياة في المسيح»، يبيّن القديس نيقولاوس كاباسيلاس أن المسيحي يقتبل ملء كيانه والحياة الحقيقية بالأسرار المقدسة التي تؤسسه في المسيح: العماد، الميرون والإفخارستيا. ومتى نما المؤمن روحيًا باقتناء الفضائل وعيشها، يكتشف أن المسيح الرب نفسه يأتي إليه ويحلّ فيه، بالروح القدس، وينمّيه إلى ملء قامته، حتى تحقيق غاية الحياة المسيحية كلها وهي الاتحاد الكامل بالله. فالمسيح بتجسده أزال جدران العداوة والتضاد بين السماء والأرض، أعاد في ذاته الشركة والإلفة بين الطبيعتين المخلوقة وغير المخلوقة، وفتح الحياة الأبدية للمؤمنين به ملكوتًا

قائلين ماذا نأكلُ أو ماذا نشربُ أو ماذا نلبسُ* فإنَّ هذا كلَّهُ تطلبهُ الأمم. لأنَّ أباكم السماويَّ يعلمُ أنَّكم تحتاجون إلى هذا كلِّهِ* فاطلبوا أولاً ملكوتَ اللهِ وبِرَّهُ وهذا كلُّه يُزادُ لكم.

تأمل

«فإذ قد تبرّرنا بالإيمان، لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح» (رو ٥:١). ماذا يعني بـ«لنا سلام» أو «ليكن لنا سلام»؟ يبدو لي أنه يتكلّم هنا عن كيفيّة السلوك والتصرّف. فبعد أن تكلّم بإسهابٍ عن الإيمان وعن عدم التبرير بالأعمال، يعرض لنا الآن كيفيّة السلوك أي كيف يعيش الإنسان في كنف الإيمان بالله.

«ليكن لنا سلام مع الله» تعني أن لا نعود نخطئ ثانيةً، أن لا نعود إلى السيرة السابقة (التي هي بحسب الجسد) حين كنا في عداء مع الله.

ولكن كيف يمكننا ألاّ نعود إلى الخطيئة؟ هل هذا ممكن؟ يقول بولس ما معناه: إذ كنا قد تحرّرنا بالمسيح من خطايانا كلّها، فبالمسيح أيضاً باستطاعتنا البقاء بعيدين عن الخطيئة. ولكن أن يكسب المرء السلام مع الله شيء، وأن يحافظ عليه شيء آخر. الأول أصعب من الثاني لأن اكتساب شيء غير موجود هو أصعب من المحافظة على شيء موجود.

يبدأ الآن، في هذه الحياة، في حياة الكنيسة. ففي الكنيسة ينسكب المسيح انسكابًا، بالأسرار الإلهية، في كل عضو من أعضاء جسده (أبناء الكنيسة)، كما النور الذي يدخل من نافذة فيضيء الغرفة كلها. المسيح يسكب ذاته في أعضاء جسده ليحقق لهم سرّه الإلهي الأعظم: عرس اتحاد الإنسان بخالقه بالنعمة التي تُسبغ على الجسد الخاضع لناموس الزوال حياة أبدية ثابتة لا تزول. هنا يشدد القديس على أن حضور الرب فينا لا يصبح فاعلاً إلا متى آزرناه بقبولنا الطوعي الإرادي لعطية الله، وحفظنا بتيقظ النعمة الممنوحة كمن يحمي مصباحه من النضب وشعلته من الهواء. عمليًا، يقول القديس، تتمثل حياة المسيحي في حفظ حواسه وأعضائه، والتأمل في الكرامة العظمى الممنوحة لنا من الله مجانًا. عندئذ تمسي قوى الشر عاجزة عن استمالة إنسان يعي يقينًا عظمة الحب الذي أحبنا إياه ابن الله، حتى إنه قَبِلَ الذبح الجائر طوعًا ليجعل منا مسكنًا له وأعضاء لجسده. هذا الإنسان يصبح المسيح مشتهاه الوحيد فتسهل عليه إذّاك الفضائل، التي متى نما فيها تتوحد إرادته بإرادة المخلّص، فيصبح الحب الإلهي طابع حياته. هذه هي مرحلة الاشتراك في خصائص طبيعة المسيح، الإنسان الإله. هذا التأله يراه قديسنا جليًا في شخص والدة الإله الكلية القداسة، التي بطهر روحها وتطويع إرادتها كليًا لمشيئة الله اجتذبت الروح القدس فولد منها المخلّص.

هذا الفيلسوف في ثقافته والهدوئي في دعوته جمع العناصر الإيجابية من فكر عصره وفلسفاته، و«قدّسها» بالصلاة والسجود وعيش الأسرار الإلهية، لتصبح لاهوتًا أسراريًا يضعه بلا ريب في مصف آباء الكنيسة الكبار ومعلّميها القديسين.

انقضاء الدهر

«ليس لكم أن تعرفوا الأزمنةَ والأوقاتَ التي جعلها الآبُ في سُلطانِه» (أع ١: ٧).

من بعد قيامة الرب يسوع من بين الأموات وصعوده إلى السموات وإرساله الروح القدس على التلاميذ وتأسيسه الكنيسة، يعيش أبناء الكنيسة، أعضاء جسد المسيح، حالة انتظار لمجيء الرب الثاني. هذا المجيء يرافقه قيامة الموتى أجمعين (يو ٥:٢٩) والدينونة العامة للجميع وإقامة ملكوت الله الذي لا نهاية له. كثير من مؤمني الكنيسة الأولى ظنوا ان المجيء الثاني قريب جداً على الأبواب (مثل أهل كورنثوس)، ومنهم من شكّكوا بالمجيء الثاني وبقيامة الموتى. أما الرسل فكانوا يعلّمون الشعب بوضوح ان ينتظروا «ابنه من السماءِ الذي أقامه من الأمواتِ يسوعَ الذي يُنقذنا من الغضبِ الآتي» (١تسا ١:١٠)، وان قيامة الموتى سوف تحدث، لكن كل شيء في الوقت الذي يراه الرب مناسبا: «لا يتباطأُ الربُّ عن وعدِهِ كما يحسبُ قومٌ التباطؤَ لكنه يتأنّى علينا وهو لا يشاءُ أن يهلِكَ أُناسٌ بل أن يُقبلَ الجميعُ إلى التوبةِ. ولكن سيأتي كلِصٍّ في الليلِ يومُ الربِّ الذي فيه تزولُ السمواتُ بضجيجٍ وتنحلُّ العناصرُ مُحترقةً وتحترقُ الأرضُ والمصنوعاتُ التي فيها. فبما أنَّ هذه كلَّها تنحلُّ أيَّ أُناسٍ يجبُ أن تكونوا أنتم في سيرةٍ مقدَّسةٍ وتقوى مُنتظرينَ وطالبينَ سُرعةَ مجيءِ الربِّ الذي به تنحلُّ السمواتُ مُلتهبةً والعناصرُ محترقةً تذوبُ. ولكننا بحسبِ وعدِهِ ننتظرُ سمواتٍ جديدةً وأرضاً جديدةً يسكنُ فيها البرُّ» (٢بط ٣: ٩-١٣).

لقد حاول الكثيرون أن يفتشوا في

حسب القديس غريغوريوس بالاماس «هناك ثلاثة أنواع من السلام: سلام تجاه أنفسنا عندما نطرد الأهواء والأفكار من أنفسنا ولا نعود نضطرب من جرّائها، وسلام تجاه قريبنا عندما نسالمه ولا نُعثره، وسلام تجاه الله عندما نحفظ وصاياه ومشيئته ولا يؤنّبنا ضميرُنا لعصيان وصاياه». ويقول القديس مرقس الناسك: «السلام هو التحرّر من الأهواء، ولا يتمّ إلاّ بفعل الروح القدس».

لهذا قام المسيح بالشيء الأصعب، أي جلب لنا السلام والمصالحة مع الله بعد أن كنا أعداءه. فمن الطبيعي إذاً أن نقوم نحن بالشيء الأسهل أي الحفاظ على هذه المصالحة مع الله الآب، وعلى الأقل ألاّ نكون ناكري الجميل بل نظهر على أننا أبناء شاكرون. «لنا سلام بربنا يسوع المسيح»، لأننا بعد أن كنا بعيدين قرَّبنا يسوع المسيح من الآب، وبه فقط نبقى قريبين إذا ثبتنا على الإيمان والرجاء.

يقارن بولس الرسول دائماً بين ما يقدّمه الله لنا وما نقدّمه نحن له. طبعاً تقدمة الله هي دائماً الأكبر والأشمل، لأنه مات من أجلنا وصالحنا مع الآب وأحضرنا إلى ملكوته وأعطانا نعمته غير المعبَّر عنها ونحن نبادله فقط الإيمان...

القديس نيقوديموس الآثوسي

الكتاب المقدس لتحديد الوقت الذي سيكون فيه المنتهى وانقضاء الدهر. هؤلاء باطلاً وعبثاً يحاولون لأن ملكوت الله لا يأتي بمراقبة (لو ١٧: ٢٠). كلام الله ومخططه الخلاصي لنا هو كلام مفتوح على الزمن ولا يمكن التنبؤ بوقت حصول مواعيده. الله بحكمته ورحمته، عندما يرى الوقت مؤاتياً، يحقق مواعيده. الأنبياء تحدثوا، بنعمة الله، عن مجيء المسيا المخلّص لكنهم لم يحددوا متى سيحدث ذلك. «ولكن لما جاءَ ملءُ الزمانِ أرسلَ اللهُ ابنه مولوداً من امرأةٍ مولوداً تحتَ الناموسِ ليفتدي الذينَ تحت الناموس لننال التبني» (غلا ٤: ٤–٥). هكذا أيضاً المجيء الثاني لا أحد من البشر والملائكة يعرف زمن حدوثه: «وأمَّا ذلك اليوم وتلك الساعةُ فلا يعلمُ بهما أحدٌ ولا الملائكةُ الذينَ في السماءِ ولا الإبنُ إلاَّ الآبُ» (مر ١٣:٣٢). شهود يهوه لم يقرأوا هذه الآية في العهد الجديد بل وضعوا التواريخ والأزمنة ولم يحصل شيء. أخذوا يحسبون التواريخ فقالوا ان الملكوت سوف يأتي عام ١٩١٤ ثم قالوا١٩١٨. ولما لم يحدث شيء قالوا ١٩٢٥. ثم قالوا عام ١٩٩٤ ولم تحصل النهاية. هذا لأنهم لا يعلمون ماذا يريدون ولا ماذا يريد الله منا.

الكتاب المقدس ليس كتاباً علمياً بحتاً، مثل كتب علوم الحياة والرياضيات والتاريخ، ومَنْ يسعى إلى أن يقرأ في الكتاب المقدس التفاصيل العلمية فإنه لا يجدها. يتحدث الكتاب المقدس أساساً في الإيمان، الإيمان بالله وعلاقتنا به. فنحن لا نستطيع الدخول في تفاصيل مخطط الله الخلاصي. نحن نعرف الله ومخططه بالقدر الذي كُشِفَ لنا وكما تحقق في التاريخ. والله كشف لنا ما نحتاجه لخلاصنا. ومما كشفه لنا، أن المسيح سوف يأتي في المستقبل كملك وقاض، سوف يأتي في وقت لا نتوقعه. لذا يطلب منا أن نكون متيقظين وساهرين كأبناء وبنات للنور: «اسهروا إذاً لأنَّكم لا تعلمونَ في أيَّةِ ساعةٍ يأتي ربُّكم... لذلك كونوا وأنتم أيضاً مُستعدينَ لأنَّه في ساعةٍ لا تظنونَ يأتي ابنُ الإنسان» (متى ٢٤: ٤٢ و٤٤).

«كونوا مستعدين لأنه في ساعة لا تظنون»، هذا ما يقوله الرب في نهاية الإصحاح ٢٤ من إنجيل متى الذي يرد فيه على سؤال التلاميذ «قُلْ لنا متى يكونُ هذا وما هي علامةُ مجيئكَ وانقضاء الدهر» (٣:٢٤). يقول انه سوف تحدث حروب وتنقلب الممالك وتقوم المجاعات ويأتي أنبياء كذبة وغيرها الكثير من العلامات. لكن كلها علامات حدثت في الماضي وتحدث الآن وسوف تحدث بالتأكيد في المستقبل. إذاً ما هو الهدف من إعطاء هذه العلامات؟ الهدف أن يكون الإنسان مستعداً في اية لحظة قد يأتي فيها ربه. فالآخرة قد تأتي اليوم أو غداً أو بعد مئة سنة أو ألف سنة. قد نموت ولا يكون حدث المجيء الثاني. لكن متى متنا تكون النهاية ويتقرر مصيرنا الذي سوف يتحقق عند قيام الملكوت الأخير في المجيء الثاني. لذلك نرى الرب في الإصحاح ٢٤ يتحدث عن ثلاثة أمور وكأنها واحد: الموت الشخصي للإنسان، دمار المدينة، المجيء الثاني. الشيء المشترك بين الثلاثة هو المنتهى الذي يُدرك كل واحد منا. المهم في الحالات الثلاثة أن نكون مستعدين لملاقاة وجه الرب.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:
www.quartos.org.lb